ثالوجه الانساني للشاعر الصعلوك في العصر الجاهلي

د. رفاه علي نعمة العزاوي

جامعة بابل- كلية التربية للعلوم الانسانية

المقدمة

عاش المجتمع العربي قبل الإسلام في ظروف بيئية ومناخية قاسية ألقت بظلالها على موارد المعيشة التي كانت ضعيفة لا تسد الحاجة ، فضلاً عن ذلك إن البناء القبلي للمجتمع الجاهلي هو بناء طبقي (أسياد وعبيد وطبقة تتوسط بين الاثنين) ، وهذا البناء الاجتماعي أسهم بشكل كبير في تعميق الفوارق الطبقية بين أبناء المجتمع الواحد .فقد انقسم المجتمع الجاهلي على طبقتين اقتصاديتين ، طبقة تملك السلطة والاموال وتهيمن على كل مظاهر الحياة ، وأخرى فقيرة محرومة تعاني ويلات الجوع وشظف العيش ، ولذلك ولدت الصعلكة بشكل طبيعي لتعبر عن الواقع المتردي فهي ثورة ضد الظلم والحيف ، وإعلان للرفض والمطالبة بتحقيق العدالة الاجتماعية ، واسترداد للحقوق المستلبة بالقوة ، لان القوة هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق العدالة الاجتماعية التي تتمثل بتكافؤ فرص العيش ، وتوزيع الثروات توزيعاً عادلاً بين كافة افراد المجتمع .فالصعلكة وفق هذه الرؤية ليست ظاهرة سلبية لأن المجتمع كله قائم على الغزو والإغارة ومبدأ البقاء للأقوى هو السائد في الجزيرة العربية ، وانما هي نزعة انسانية نبيلة ووجه من وجوه الفروسية لما يتصف به الصعلوك من صفات إنسانية نبيلة تحملنا على الإعجاب به لا إزدراءه كالكرم والشجاعة والمروءة والصبر ومساعدة الفقير والمحتاج وإيثار الضعيف من الناس ويمكن القول ان الصعاليك يمتازون بفرط الاحساس ، لانهم شعروا قبل غيرهم بهذا الظلم الذي لحق بهم ففقدوا توافقهم مع المجتمع ، وكثيراً ما شكوا من هوان منزلتهم وعدم تقدير المجتمع لهم .

جاء البحث على ثلاثة مباحث درس المبحث الاول "الصعلكة" لغة واصطلاحاً ، اما الثاني فقد درس في نبذة مختصرة الحياة الاجتماعية والسياسية والبيئية للعرب قبل الاسلام في حين درس المبحث الثالث المعاني الانسانية التي عرف بها الشعراء الصعاليك كالشجاعة والكرم والصبر والمروءة ومساعدة الضعفاء والمحتاجين .

المبحث الاول

الصعلكة لغة وإصطلاحاً

جاء في القاموس المحيط : (صَعْلَكَهُ) أفقرهُ ... وجلُ مُصَعْلَك الرأس مُدَورَّه والصُعلوك كعصفور الفقير وتصعلك افتقر وتصعلكت الابل طرحت اوبارها وعروة الصعاليك هوا ابن الورد لانه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه[1].

اما صاحب اللسان فيذكر ان (الصُّعْلوك) : الفقير الذي لا مال له، زاد الأزهري : ولا اعتماد[2]* . وقد تصعلك الرجل اذا كان كذلك ؛ قال حاتم طيِّء :

غنينا زماناً بالتصعلك والغنى فكلاً سقانا بكأسيهما الدهرُ

فما زادنا بغياً على ذي قرابة غِنانا ، ولا أزْرَى بأحسابنا الفَقْرُ

وتصعلكت الابل : خرجت اوبارها وانجردت وطرحتها[3] .

إما الجوهري في الصحاح فيقول : ((الصعلوك الفقير . وصعاليك العرب : ذؤبانها . وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك ؛ لانه يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه والتصعلك : الفقر[4] .

فهو يتفق مع صاحب اللسان وصاحب القاموس في ان المعنى الاصلي لكلمة (صعلوك) هو الفقير ، وانها تدور ايضاً حول المتجرد . وهذا يعني ان المعنى المباشر للصعلكة هو الفقر ، وانها في استعمالاتها الاخرى تدور أيضاً حول الفقر ، اما بمعناه المباشر وهو التجرد ، فإن الفقر في الانسان هو التجرد من الغنى وكذلك التصعلك في الابل بالتجرد من أوبارها ، او بآثاره كالضمور والهزال[5] .

---

[1]() القاموس المحيط : 3/310 .

[2]

[3]()اللسان : مادة (صعلك)

* أي الذي لا يعتمد على أحد في كسب قوته

[4]()الصحاح : 4 / 1596 .

[5]() شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، د. عبد الحليم حفني ، الهيئة العامة للكتاب ، 1987م ، 17 .

وظلت كتب المعاجم تركز في معنى (صعلك) على الفقر والمعاني التي تدور حوله وحول آثاره حتى جاء في جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي (الصعلوك الفقير ، وهو أيضاً المتجرد للغارات ، وهو الذي يعيش من غزواته)[6]، فقد أضاف الى سمة الفقر للصعلوك ، سمة جديدة وهي التجرد للغارات فالصعلوك هو الذي يسهر ليلة في النهب والسلب ويسري بالليل غازياً برجال وفرسان وبذلك يكون قد أخرج هذه اللفظة من دارئرتها اللغوية ، الفقر ، أي دائرة اوسع منها هي دائرة الغزو والإغارة والسلب[7] .

وبذلك يكون هذا التعريف هو الأشمل والأكمل لما ورد من تعريفات لمعنى الصعلوك .

ان مادة (صعلك) تدور في دائرتين : أحدهما ((الدائرة اللغوية)) التي تدل فيها على معنى الفقر وما يتصل به من حرمان في الحياة ، وضيق في اسباب العيش ، والاخرى نستطيع ان نطلق عليها ((الدائرة الاجتماعية)) وهي تتصل بالوضع الاجتماعي للفرد ، وبالأسلوب الذي يسلكه في الحياة لتغيير هذا الوضع[8].

ويمكن القول ان الصعاليك هم أكثر الناس إحساساً بالظلم و أكثرهم شعوراً بالتمييز الطبقي والعرقي ، وأول من خرج وتمرد على الانظمة المتسلطة المستبدة وذلك لقلب الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي المتردي ، بغض النظر عن الاسلوب الذي سلكوه للتعبير عن موقفهم الرافض للنظام القائم آنذاك .

المبحث الثاني

نبذة مختصرة عن حياة العرب قبل الاسلام

عاش المجتمع العربي قبل الاسلام في ظروف بيئية ومناخية قاسية ، وكان أكثر اعتماده على المطر حتى ان أحد اسماء المطر لديهم (الحيا) فهو يمثل بالنسبة لهم الحياة . هذا من وجهة ومن وجهة اخرى ان الاعتماد على المطر وحده يمثل عامل خوف وعدم اطمئنان ومن ثم عدم استقرار، لان المطر قد ينزل وقد لا ينزل وكثيراً ما يتوقف الغيث من النزول عن الجزيرة العربية لسنوات ، فتجف الارض وتصبح الحياة معدومة وقاسية ، وكثيراً ما يدعوهم ذلك الى الصلاة ، وهو ما يعرف بصلاة الاستسقاء ، وكأن هذا الدعاء رغبة ملحة في نفوسهم من أجل الحصول على مياه الامطار وهطوله بعد ان حرموا منه لسنوات .

اما سبل العيش فقد كانت بسيطة وغير متنوعة ، الأمر الذي اضطرهم الى الغزو والنهب ، فكانت القبائل اذا ما افتقرت الى موارد العيش لجأت الى غزو القبائل الأخرى ، وذلك من أجل ضمان استمرار الحياة ، فقد كان مبدأ البقاء للاقوى هو السائد في الجزيرة العربية في ظل تلك الظروف المناخية والمعيشية الصعبة .

كما ان المجتمع العربي قبل الاسلام كان مجتمعاً طبقياً بالدرجة الاولى فكان هناك طبقة السادة الاغنياء الذين يستأثرون بالثروة وطبقة العبيد الذين لا يملكون شيئاً وقد لا يملكون حتى انفسهم (يملكون من قبل الآخرين) وهم العبيد وطبقة ثالثة تتوسط بين الاثنين .

والصعلكة وفق هذا التناقض الطبقي (ليست ظاهرة طارئة على الحياة الاجتماعية ، وانما ولدت بشكل طبيعي لتعبر عن التناقض الكامن في المجتمع العربي ، وتنبئ عن تردي الواقع ، اجتماعياً وإقتصادياً وسياسياً)[9] .

فقد عانى المجتمع العربي من التمايز والعبودية والاذلال ، كما كان للبناء الاجتماعي غير العادل الاثر الاكبر في تعزيز الفوارق بين طبقاته فقد ذاقت طبقة العبيد ويلات الذل والقهر والحرمان وعانت من شظف العيش ومن تسلط الطبقة الغنية على رقابها ، فأخذ بعض افرادها بالتمرد والثورة في محاولة منها للانقلاب واعادة الحقوق المسلوبة ، وشعر الكثير منهم بالهوان وعدم المساواة ، فأخذوا ينظمون شعراً مليئاً بالرفض والعصيان والمطالبة بالعدل والمساواة، ومحاولة نزع الحقوق من أيدي المتسلطين الذين سلبوهم حق العيش ، فاختار هؤلاء الشعراء طريقة تحررهم بأنفسهم ، وهو الطريق الذي يؤدي الى تحقيق التكافل الاجتماعي القسري بينهم وبين طبقة الاغنياء المترفين ووفق رؤيتهم الخاصة .

---

[6]() جمهرة أشعار العرب، ابو زيد محمد بن ابي الخطاب القرشي، شرحه وضبطه وقدم له الاستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان،ط3، 2002م، 265-266

[7]() اشار الى ذلك د. عبد الحليم حفني في كتابه شعر الصعاليك منهجه وخصائصه: 19 و د. يوسف خليف في كتابه الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي: 23.

[8]() الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، د. يوسف خليف ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، 1959م ، 24-25 .

[9]() البنية السردية في شعر الصعاليك ، د. ضياء غني لفتة ، عمان – الاردن ، ط1، 2010م ، 17 .

فالصعلكة وفق هذه الرؤية (نزعة انسانية نبيلة وضريبة يدفعها القوي للضعيف والغني الى الفقير ، وفكرة اشتراكية الفقراء في مال الاغنياء وتجعل لهم فيها نصيباً ، وتهدف الى تحقيق لون من الوان العدالة الاجتماعية ، والتوازن الاقتصادي بين طبقتي المجتمع المتباعدتين : طبقة الاغنياء ، وطبقة الفقراء) [10].

وقد ينظر بعضهم الى هذه الظاهرة نظرة سلبية لانها تقوم على مبدأ القتل والسرقة والنهب والغزو ، وهذه النظرة تجانب الصواب لان المجتمع العربي الجاهلي قائم كله على مبدأ الاغارة والغزو والنهب نضف الى ذلك ان البناء الاجتماعي للمجتمع العربي الجاهلي آنذاك لم يكن سليماً ولا عادلاً ، لا تتكافأ فيه فرص العيش امام الجميع ، وقائماً على مبدأ التوزيع غير العادل للثروات . وتوجد طبقة فقيرة محرومة ومعوزة تعيش على هامش الحياة* لذلك ومن هذا المنطلق (حاول الصعاليك بناء نظام اجتماعي جديد ، وكادوا يكونون تياراً اجتماعياً من خلال غزو الاغنياء لحساب الفقراء اذ ان الصعلكة بوصفها ظاهرة اجتماعية متمردة في المجتمع تحاول الخروج على انماط القهر ، ويلتقي هذا التمرد بالثورة)[11] .

ويمكن تقسيم الصعاليك على ثلاث طوائف :

1- طائفة الخلعاء اوالشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم حتى اصبحوا غير مرغوب فيهم ، فتضظر قبائلهم الى طردهم والى قطع صلتها بهم وتعلن البراءة منهم ، أمثال حاجز الازدي ، وقيس بن الحدادية ، وأبي الطحان القيني .
2- طائفة السود الذين يسمون بـ(الاغربة) تشبيهاً لهم بالغراب الاسود وهم ابناء الجشيات الذين سرى اليهم السواد من امهاتهم الإماء فلم يعترف بهم آباؤهم لان دماءهم غير عربية خالصة وغير نقية انما شابها دم غير عربي فلم يعودوا عرباً أصلاً ولم يلحقوا بآبائهم لعار سوادهم ، مثل تأبط شراً و الشنفرى ، والسليك بن السلكة . وقد كانت هذه الطبقة فقيرة مهانة تعيش على هامش المجتمع الجاهلي .
3- طائفة الفقراء المعدمين الذين احترفوا الصعلكة إحترافاً ثورة منهم على الظلم وعلى الحيف الكبير الذي لحق بهم، بسبب البناء الاجتماعي الطبقي الذي حرمهم حقوقهم ، وقد يكونون أفراداً مثل عروة بن الورد أو مجموعة كبيرة في قبيلة مثل صعاليك هذيل .

المبحث الثالث

الصفات التي عرف بها الشعراء الصعاليك

تحمل الجوع

ان كل الشعراء الصعاليك فقراء لذا كثر في شعرهم الحديث عن الفقر وما يعانوه من حرمان ، وكان من أبرز المعاني التي دار عليها شعرهم .

فهذا (الشنفرى) يرسم لنا صورة مشرقة لذلك النبل الذي يحمله الصعلوك من خلال تحمله للجوع و ايثاره القناعة ، فلا يجعل الجوع يسيطر عليه او يفقده اخلاقه التي عرف بها والتي زادته سمواً ورفعة ، وذلك من خلال لاميته (لامية العرب) التي صورت تصويراً دقيقاً وشاملاً لحياة الصعلوك في العصر الجاهلي فقال :

أديمُ مِطالَ الجوع حتى أميتهُ ... وأضربُ عنه الذكر صفحاً فأذهلُ

واستفُّ تُرْبَ الأرضِ كي لا يرى له ... عليّ من الطول ، امرؤٌ متطوّلُ

ولولا اجتناب الذّأم لم يُلْفَ مشْربٌ ... يعاشُ به ، إلاَ لديَّ ومأكلُ

ولكنَّ نفساً مُرّةً لا تقيم بي ... على الضّيم إلاَ رَيْثما أتحوّل

وأطوي على الخمص الحوايا كما ... انطوتْ خيوطهُ ماري تفارُ وتفتلُ

---

[10]() الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي : 47.

[11]() البنية السردية في شعر الصعاليك، د. ضياء غني لفتة: 17

وأغدو على القوتِ الزهيدِ كما غدا أزلُّ تهاداه التَّنائِفُ ، أطْحلُ[12]

ويرفض عروة بن الورد الخضوع والاستسلام للفقر، ويحاول ان يبذل كل جهده من اجل ان يصبح غنيا، لان الفقر هو الشر وهوالموت الوشيك قال:

دَعيني للغنى أسعى ، فإنّي رأيتُ الناسَ شرُّهُمُ الفقيرُ[13]

وقال أيضاً :

إذا المرْءُ لم يطلبُ معاشاً لنفسهِ شكا الفَقْرَ ، او لام الصديقَ فأكثرا

وصار الى الأدْنَينِ كلاً و أوْشكتْ صِلاتُ ذوي القُربى لهُ أنْ تنكرا

وما طالب الحاجاتِ منْ كل وَجْهَةٍ من الناس ، الا منْ أجدَّ وشمّرا

فَسرْ في بلاد اللهِ والتمس الغِنى تَعِشْ ذا يَسَارٍ أو تموتَ فتُغدرا[14]

وقال :

ومن يكُ مِثلي ذا عيالٍ ومُقْتراً من المال يَطْرحْ نفْسَهُ كُلَّ مَطرَحِ

ليبلُغَ عُذراً او يصيبَ رغيبةً ومبلغ نفسٍ عُذرها مثلُ منجحِ[15]

ان الفقر وحده لايمكن ان يكون سببا في صعلكة هؤلاء الشعراء، اذا انعمنا النظر في البادية فهي بيئة فقيرة قاسية ، وان مواردها ضعيفة ، وانما الاحساس بالفقر هو من أهم اسباب الصعلكة . فالثورات على الظلم ليس مصدرها الظلم وانما مصدرها الاحساس بالظلم[16] .

إن إحساس الشاعر الصعلوك بالفقر المدقع وشدة وطأته على نفسه ، وعدم تقدير المجتمع له ، وعدم شعوره بوجود عدالة اجتماعية او تكافؤ في فرص الحياة بحيث يكون مساوياً لغيره من طبقة الاغنياء في المجتمع، جعله يسلك طريق التمرد والخروج على السلطة من أجل استرداد حقوقه بغض النظر عن الطريق الذي سلكه فالمهم هو تحقيق الهدف او الغاية التي يرمي الى تحقيقها .

والحقيقة ان أقسى ما يحمله الفقر الى جسد الفقير هو الجوع ، وهذا يمثل الصراع بين الحياة والموت ، لانه يتصل بحاجات الجسد ، فالجوع –كما يقرر علماء الاجتماع- اول الدوافع المسيطرة على حياة الانسان[17] ، فالجوع يشتد بعروة فينادي اصحابه ان هلموا الى الغزو ، لان الموت خير من حياة الجوع والذل والهوان فقال :

أقيموا بني لُبنى صدور ركابكُمْ فكلُّ منايا النفسِ خيرٌ من الهُزلِ

فإنكمُ لن تبلغوا كل همتّي ولا أربي حتى تروا منبتَ الأثْلِ

فلو كنتُ مثلوجَ الفؤادِ ، اذا بَدَتْ بلاد الأعادي ، لا أمرُّ ولا أحلي[18]

اما السليك بن السلكة فقد كان يغمى عليه من الجوع في الصيف اللاهب حتى كاد يشرف على الموت والهلاك فقال :

---

[12]() ديوان الصعاليك، شرح د. يوسف شكري فرحان، دار الجيل – بيروت، 2004م، 41 .
[13]() م. ن: 93 .
[14]() الديوان: 91-92
[15]() م. ن: 65
[16]() ينظر شعر الصعاليك منهجه وخصائصه : 56 .
[17]() الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي : 27 .
[18]() الديوان : 103 .

وما نِلْتُها حتى تصعلكتُ حِقبَةً وكَدتُ لأسباب المنية أعرفُ

وحتى رأيتُ الجوعَ بالصيف ضرَّني إذا قُمتُ تغشاني ظلالٌ فأسدِفُ[19]

وتبرز صورة الجوع في قصيدة الصعاليك بكونها تنطلق من مستوى نفسي مؤثر يبرز صداه في أرجاء القصيدة ، وتتأكد هذه الرؤية وهذه الصورة مغلفة بطابع الألم الذي يعتمل في نفس الشاعر الصعلوك وهو يتحدث عن فقره و تأثير ذلك في حياتهم الاجتماعية وصياغتهم الشعرية [20].

الشجاعة

يمتلك الصعاليك كماً وافراً من الشجاعة والإقدام وقوة الجسد وقد فاضت أشعارهم بأحاديث الجرأة والقوة ، وكثيراً ما افتخروا بذلك وصرحوا به في أشعارهم . قال تأبط شراً :

قليلُ التشكي للمُلمِّ يُصيبُهُ كثير الهوى ، شتى النوى والمسالك

يبيت بموماةٍ ويُمسي بغيرها وحيداً ويعروري ظهور المهالكِ

يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي بحيث اهتدتْ أمِّ النجومِ الشَّرابكِ

اذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل له كالئُ من قلبِ شيحانَ فاتكِ[21]

ولا عجب في ذلك فقد كان الصعاليك أفراداً متميزين من حيث كونهم شعراء فرسان ، فالشاعر رجل متميز في مجتمعه ، فإذا جمع الى جانب ذلك الفروسية والقدرة على القتال فإنه يكون قد جمع إمكانات الرفض لأي وضع لا يتفق وشاعريته من ناحية وفروسيته من ناحية أُخرى[22] .

وقد ضرب الشعراء الصعاليك المثل في الشجاعة والإقدام ، وكانوا يعرفون بسرعة العدو ، وهذا من مظاهر الجرأة والقوة البدنية التي كانوا يتمتعون بها حتى انهم كانوا يلقبون بـ(العدائين) وضرب المثل بجماعة منهم في سرعة العدو ، فيقال (اعدى من الشنفرى) ، و (أعدى من السليك) .

ويتحدث تأبط شراً عن سرعة جريه ، واندفاعه في الغارات فيقول :

ويسبقُ وفد الرَّيح من حيثُ ينتحي بمنخرقٍ مِنْ شَدّهِ المتداركِ[23]

فهو يسابق الريح في حركته ويملك من القوة والسرعة ما لا يستطيع أحد ان يجاريه او يتفوق عليه .

وهو لا يهدف من شجاعته و إقدامه ان يوصف بالشجاعة وان يميز نفسه عن غيره فيقول :

قليلٌ غرارُ النَّومِ أكبرُ هَمّهِ دم الثأر او يلقى كمّياً[24]* مُقنّعاً[25]

قليلُ ادخارِ الزادِ إلاّ تَعِلّةً وقد نَشَزَ الشّرْ سوف والتصق المعى

---

[19]() م. ن : 192 .

[20]() البناء الفني في شعر الهذليين ، دراسة تحليلية ، د. اياد عبد المجيد ابراهيم ، بغداد ، العراق ، ط1 ، 2000م ، 9 .

[21]() الديوان : 153 .

[22]() الأدب الجاهلي ، قضايا، وفنون ، ونصوص ، د. حسني عبد الجليل يوسف ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، ط2 ، 2003-1424هـ ،165 .

[23]() الديوان: 153

[24]

[25]()م. ن : 139.

* الكميّ : البطل المسلح.

يُناضِلُهُ كُلٌّ يُشَجِّعُ قَوْمهُ وما طبّهُ في طرقِهِ أنْ يشجعا[26]*

اما عروة بن الورد فقد كان اسبقهم استجابة لداعي الوغى فنراه يقول :

إذا قيل يا ابنْ الوردِ أقدِمْ على الوغى أجَبتُ ، فلاقاني كميٌّ مُقارعُ[27]

وهذا الشنفرى يفخر بشجاعته بين قومه قائلا :

وإني لحُلوٌ إنْ أريدتْ حلاوتي ومُرٌّ إذا النفسُ الصدوفُ استمرَّتِ

أبيٌّ لما يأبى سريعٌ مباءتي الى كلِّ نفسٍ تنتحي بمودّتي[28]

ويوصي أصحابه ومن معه من الصعاليك بأن لا يدفنوه بل يتركوه فهذا خير له من اعدائه الذين يتشفون بموته قائلاً :

فلا تقبرُوني إنَّ قبْري محرّمٌ عليكمْ ولكنْ أبشري أمَّ عامرِ

إذا احتملت رأسي وفي الرأس أكثري وغُودِر عند المُلتقى ثم سائري[29]

ان الاسلوب الذي اعتمده الصعلوك في الشجاعة هو الجرأة والاقدام وعدم المبالاة لما سيصبح اليه الامر ، فهو لا يهاب ولا يتوجل ولايثنيه شيئاً عن أمره اذا عزم ، ولا بد ان يكون غير حريص على حياته ، ولا جزع اذا وافته المنية وخاطبه داعي الموت .

قال عروه :

فإنْ فاز سَهْمٌ للمنية لمْ أكُنْ جزوعاً وهل عن ذاك من متأخرِ[30]

وينهي زوجته التي تطلب منه ترك حياة المغامرة والمخاطرة ، وتحذره من منية قادمة لا محالة ، ولكنه يأبى الانصات الى صوتها مخاطباً ايها بأن الموت آتٍ وقد اصادفه وانا جالس في بيتي ، فدعيني اقابله وأنا في طريقي لتحقيق هدفي الذي اسعى من اجله فيقول :

أرى أم حسّانَ الغداةَ تلومُني تخوِّفُني الأعداء ، والنفس أخوفُ

لعلّ الذي خوَّفتِنا من أمامِنا يُصادفُه في أهله المتخلِّف[31]

فالمنية حين تأتي لابد للمرء من مواجهتها ولا مفر مما هو واقع لا محالة.

---

[26]* تعلّه : قلّه – الشر سوف : طرف الضلع المشرف على البطن ، طبّه :واؤه .

[27]() الديوان :65.

[28]() م.ن : 20.

[29]() م.ن : 29.

[30]() م.ن : 82.

[31]() الديوان : 100.

وأنَّ المنايا ثغْرُ كل ثنيةٍ فهل ذاك عما يبتغي القومُ محْصرُ[32]

ولذلك فهو يشيد بالصعلوك الذي يسعى الى تحقيق هدفه الاسمى الكبير ويبذل قصارى جهده من أجل الوصول اليه ، وهذا الهدف هو قهر الجوع والفقر وكسب الغنى بالترفع عن الدنايا وحياة الذل والشعور بالكرامة في الحياة ، ولبس ثوب العز والثناء في الحياة فيقول :

ولكنّ صُعلوكاً ، صحيفةُ وجْههِ كضوء شهابِ القابس المتنوّرِ

مُطلاً على اعدائه يزْجُرونهُ بساحتهم زجرَ المنيحِ المشهَّرِ

اذا بَعُدُوا لا يأمنُونَ اقترابهُ تَشَوُّفَ أهل الغائبِ المنتظرِ

فذلك ان يلقى المنية يلقها حميداً ، وان يستغْنِ يوماً فأجدرِ[33]

فهم يستهينون بالموت ولا يحرصون على الحياة ، لان الموت خير من حياة الظلم والعجز ، ويكون المرء فيها منبوذاً ومحتقراً .

قال عروة :

اذا المرء لم يبعث سواماً ولم يَرُحْ عليه ولم تعطفْ عليه اقاربهُ

فللموت خيرٌ للفتى من حياته فقيراً ، ومن مولى تدبُّ عقارُبه[34]

الكرم

وبالرغم من الفقر الذي يسحق الصعاليك ويقطع اوصالهم ، الا انهم اجواد وكرماء ، بل ان رغبة هؤلاء الشعراء العارمة في البذل والعطاء هي التي تدفعهم الى سلوكهم مثل هذا السلوك ، فهم لا يغزوا من أجل جمع المال فقط او من أجل ان يصبحوا أثرياء على حساب الفقراء والمحتاجين ، وانما المال وسيلة عندهم للكرم والعطاء و إيثار الفقراء والمعوزين من ابناء قبائلهم ، فهو يسعون الى كسب الذكر الحميد والخلود بالصفات الانسانية النبيلة . قال تأبط شراً :

سدّدْ خلالكَ من مال تجمعهُ حتى تلاقي الذي كُلُّ أمريء لاقِ

لتقرعنَّ عليَّ السِّنَّ من ندمٍ اذا تذكرتَ يوماً بعض اخلاقي[35]

---

[32]() م.ن : 86.
[33]() م.ن : 84.
[34]() الديوان: 52
[35]() م. ن: 148

وقد ضرب المثل بكرمهم وكان عروة بن الورد يقرن بحاتم الطائي في الكرم ، حتى قال عنه عبد الملك بن مروان : ((من زعم ان حاتماً اسمح الناس فقد ظلم عروة)) [36] ، وذلك لما عرف عنه من شفقة ورحمة وبذل ومساعدة للفقراء وذلك في قوله :

وإنِّي امرؤٌ عافى إنائي شِرْكةٌ ... وأنْتَ امرؤٌ عافى إنائك واحدُ

أتهزأ مني أن سمنتَ وان ترى ... بوجهي شُحوبَ الحقِّ والحقُّ جاهدُ

أُقَسِّمُ جِسْمي في جُسومٍ كثيرةٍ ... وأَحْسو قراحَ الماءِ، والماءُ بارِدُ[37]

فهو يعبر عن معنى انساني رفيع وذلك بأنه يقسم طعامه بينه وبين الفقراء أو بعبارة أدق يقسم جسمه في جسومهم ، بل كثيراً ما يؤثرهم على نفسه بكل طعامه مع جوعه ومسغبته مكتفياً بشرب الماء البارد فهو بذلك يطمع الى مثل نبيل في البرِّ والإيثار ودفع البؤس والشقاء عن الفقراء والضعفاء[38] .

ولهذا فإن الصعلوك المرفوض عنده هو ذلك الصعلوك الذي لا يطلب الزاد الا لنفسه فنراه يقول :

لحى الله صُعلوكاً اذا جن ليلُهُ ... مُصافي المشاش آلفاً كلَّ مجزر

يَعُدُّ الغنى من نفسه كل ليلة ... أصابَ قِراها من صديق مُيَسَّرِ

ينام عشاء ثم يصبح طاوياً ... أصابَ قِراها من صديق مُيَسَّرِ

يُعين نِساء الحيِّ ما يَسْتعنَّهُ ... ويُمسي طليحاً كالبعير المُحَسَّرِ[39]

ويحاول في شعره ان يبين الاسباب التي جعلته يتبع الصعلكة وذلك في قوله :

دعيني للغنى أسْعى فإنّي ... رأيتُ الناسَ شرُّهُمُ الفقيرُ

وأبعدهمْ واهونُهُمْ عليْهمْ ... وان امسى لهُ حَسَبٌ وخيرُ

ويُقصيهِ النَّديُّ وتزْدَريه ... حليلتهُ ، ويَنْهَرُهُ الصَّغيرُ

ويُلْقّيّ ذو الغنى ، وله جلالٌ ... يكاد فؤادُ صاحبه يطيرُ

قليل ذنبُهُ والذنبُ جمٌّ ... ولكن للغنى ربٌّ غفورُ[40]

فهذه فلسفة عميقة توضح مدى اغتراب الانسان في وطنه بسبب الفقر ، لان الاسس التي يقوم عليها المجتمع غير صحيحة ، فالمجتمع يحتقر الفقير لفقره ويقدر الغني لغناه ، والانسان لا قيمة له في خلقه وشرفه بل قيمته في أمواله . وجاء في الاغاني ان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (عليهم السلام) قال لمعلم ولده : لا تُروِّهم قصيدة عروة بن الورد التي يقول فيها :

---

[36] () الاغاني : 3/51.
[37] () الديوان : 72-73 ، والاغاني : 3/51
[38] () تاريخ الادب العربي ، العصر الجاهلي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط24 ، 2003م ، 385.
[39] () الديوان : 83-84 ، الاغاني : 3/51 .
[40] () م. ن : 93

دعيني للغنى أسعى فإني رأيتُ الناس شرهم الفقيرُ[41]

ويقول ان هذا يدعوهم الى الاغتراب عن اوطانهم[42]

وكثيراً ما يلام الصعلوك على اسرافه في بذله وعطائه ، فيأتي خطابه لمن يلومه ويعنفه على هذا البذل والجود الفياض اشبه بالحكمة ويعبر عن رجاحة عقل واتزان ، وتجربة عميقة وواسعة في الحياة مفادها ان الدهر يذهب المال ويفنيه فلا يبقى منه شيئاً او يذهب بالانسان نفسه وحده من دون هذا المال يقول تأبط شراً :

بل من لعذالةٍ خذّالةٍ أشبٍ حرق باللوم جلدي أيّ تحراق

يقولُ أهلكت مالاً لو قنعت به من ثوب صدقٍ ومن بزٍّ و أعلاقِ

اعاذلي إنَّ بعضَ اللّوم معنفةٌ وهل متاعٌ وان ابقيتهُ باقِ[43]

فهو يكتفي بالماء القراح بينما يتخم من حوله اشحاء النفوس بالطعام ، اما هو فحتى ان وجد الطعام آثر به عياله و أولاده ، وكل ذلك يصنعه حتى لا يوصم بعار الذل[44] .

وكان الكرم من الدوافع المهمة التي جعلتهم يقومون بثورة عارمة على الاغنياء الاشحاء ، فقد عرف عنهم انهم كانوا لا يغزون ولا يغيرون على الكرماء الذين يبذلون اموالهم ، بل يختصون بمن عرف منهم بالبخل ولم يمدوا يد العون للمحتاجين والضعفاء من أبناء قبائلهم .
قال عروة :

أيهلك مُعتمٌّ وزيدٌ ولم أقمْ على نُدبٍ يوماً ولي نفسُ مُخطرِ

يريحُ عليَّ الليل أضيافَ ماجدٍ كريم ومالي ، سارحاً ، مالُ مُقتِرِ[45]

الصبر :
ان هذه الحياة القاسية المحفوفة بالمخاطر تحتاج الى الصبر والى قوة الارادة ، وهذا ما اتصف به الشعراء الصعاليك ، حتى ان صبرهم لا تطيقه أي نفس الا انفسهم التي اعتادت الصعاب ، والفت المشقة فلا تشكو ولا تجزع بل تقاوم وتحتمل حتى يكاد بنعدم لديهم الشعور بالألم .
فهذا الشنفرى يتحدث عن صبره على جوعه الشديد الذي استبد به وعن مدى احتماله له ، حتى انه يتجاهله فيزول هذا الشعور وينتصر عليه بصبره فيقول:

أديمُ مِطالَ الجوع حتى أَميتهُ وأضربُ عنه الذكر صفحاً فأذهلُ

---

[41]() الديوان: 93
[42]() الاغاني: 3/52 .
[43]() الديوان: 148
[44]()تاريخ الادب العربي، العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف: 376
[45]() الديوان : 85 .

واستفُّ تُرْبَ الأرضِ كي لا يرى له عليّ، من الطول ، امرؤٌ متطوّل[46]

فقد علمه صبره ان يغض الطرف عن الجوع ولا يشتكي المه بل يتحكم به، لان مشاعره وانفعالاته ثابتة ، فهو لا يفرح ولا يحزن وهو يفرض إرادته على كل حاجة من حاجات جسده فيقول :

فإني لمولى الصبر اجتابُ بزَّه على مثل قلب السّمع والحزم أنعلُ

وأعدم أحياناً و اغنى ، وانما ينالُ الغنى ذو البُعْدة المتبذلُ

فلا جَزِعٌ من خلّةٍ متكشفٌ ولا مدحٌ ، تحت الفنى ، أتخيلُ

ولا تزدهي الاجهال حلمي ولا أرى سئولاً بأعقاب الاحاديث أنملُ[47]

فهو يفخر بأنه يصبر على الجوع حتى ينكشف عنه دون ان يلحقه ضيم وذلك في قوله :

غدا طاوياً يعارض الريح هافياً يخوف بأذناب الشعاب ويعْسِلُ [48]

لقد آمن الشاعر الصعلوك بمثالية مفادها ان يكون صابراً مهما ألم به من خطب ، ومهما مرّ به من ظروف قاسية فلا يشكو ولا يجزع لأن صبره أقوى من كل المحن .

قال عروة :

فلا أنا ممّا جرّتِ الحربُ مُشْتكٍ ولا أنا ممّا أحدثَ الدهرُ جازعُ[49]

ولا بصري عند الهياج بطامعٍ كأني بعيرٌ فارق الشوْل ، نازعُ*[50]

وقال أيضاً :

صبوراً[51]** على رُزءِ الموالي وحافظاً لعرضي، حتى يُوكل النبتُ أخضرا[52]

الخاتمة

1- الصعلكة ظاهرة انسانية ، وهي وجه من وجوه الفروسية ، لذلك فقد حمل الصعلوك الكثير من الصفات النبيلة التي يتصف بها الفارس العربي آنذاك كالشجاعة والكرم والمروءة ، والصبر ونكران الذات.
2- ان البناء القبلي للمجتمع الجاهلي هو بناء طبقي (أسياد وعبيد وطبقة تتوسط بين الاثنين) .
3- ان هذا البناء الاجتماعي للمجتمع العربي اسهم بشكل كبير في تعميق الفوارق المادية بين طبقاته .
4- انقسم المجتمع على طبقتين اقتصاديتين ، طبقة السلطة المهيمنة على كل مظاهر الحياة ، والتي تمتلك الاموال ، والطبقة الفقيرة المحرومة التي عانت ويلات البؤس والشقاء.

---

[46]() م. ن : 41 .
[47]() الديوان : 46 .
[48]() م.ن : 42 .
[49]() م.ن : 96 .
[50]* الشول : الإبل ، نازع : مشتاق .
[51]
[52]() الديوان: 85
** صبوراً : صيغة مبالغة وهي تدل على كثرة الحدث وشيوعه .

5- ولدت الصعلكة بشكل طبيعي لتعبر عن التناقض الكبير في المجتمع العربي الجاهلي ، وتوحي بتردي الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي .
6- ان الصعلكة لا تعد ظاهرة سلبية في المجتمع العربي آنذاك ، لان المجتمع كله قائم على مبدأ الغزو والاغارة ، ولكن الفرق بينهما ان عمل القبيلة جمعي منظم ، اما الصعلكة فهي عمل فردي او جمعي لا يعتمد نظاماً معيناً .
7- ان الصعلكة ظاهرة اجتماعية وهي خروج وتمرد على السلطة القائمة ولذلك فهي اشبه بالثورة على الظلم مع ايمان الصعاليك المطلق بعدالة القضية التي ناضلوا من أجلها .
8- ان الصعاليك فئة فقدت توافقها الاجتماعي وشكت هوان منزلتها وعدم تقدير المجتمع لها فقررت رفض هذا الواقع وعبرت عن هذا الرفض بالخروج والتمرد وعدم القدرة على التكيف مع الظلم والحيف الذي لحق بها .
9- ترمي الصعلكة الى اعادة التوازن للمجتمع من خلال بناء نظام اجتماعي جديد يقوم على مبدأ التوزيع العادل للثروات وتكافؤ فرص الحياة بين افراد المجتمع ، وهي تحمل في طياتها نزعة اشتراكية تحاول ان تشرك الفقراء في مال الاغنياء وتوفر لهم فيه نصيباً .
10- ان المهيمنين على الثروات هم اشحاء بخلاء لا يعطون للفقراء من الاموال التي جمعوها ، ولذلك قرر الصعاليك التصدي لهؤلاء بسرقة اموالهم وتوزيعها على الفقراء والضعفاء والمحتاجين .

المصادر والمراجع

1- الادب الجاهلي، قضايا، وفنون، ونصوص، د. حسن عبد الجليل يوسف، مؤسسة المختار، القاهرة، ط2، 1424هـ - 2003م.
2- البناء الفني في شعر الهذليين، دراسة تحليلية، د. اياد عبد المجيد ابراهيم، بغداد، العراق، ط1، 2000م.
3- البنية السردية في شعر الصعاليك، د. ضياء غني لفتة، ط1، عمان – الاردن، 2010 م.
4- تاريخ الادب العربي، العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، درا المعارف، القاهرة، ط24، 2003م.
5- جمهرة اشعار العرب، ابو زيد محمد بن ابي الخطاب القرشي، شرحه وضبطه وقدم له الاستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط3، 2002م – 1424هـ.
6- ديوان الصعاليك، شرح د. يوسف شكري فرحات، دار الجيل- بيروت، 2004م.
7- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر، د.يوسف خليف، القاهرة، 1959م.
8- شعر الصعاليك، منهجه وخصائصه، د. عبد الحليم حفني، الهيئة العامة للكتاب، 1987م.
9- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، اسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق احمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط3، 1404هـ - 1984م.
10- القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز ابادي، مطبعة السعادة بمصر.
11- كتاب الاغاني لابي الفرج علي بن الحسين الاصفهاني، تحقيق: د. احسان عباس، د.ابراهيم السعافين، الاستاذ بكر عباس، دار صادر، بيروت- لبنان، ط2، 1425هـ- 2004م.